



أعظم تعبير عن الثورة هي أنها مانحة الحياة للناس، باعثة على التجدد و النماء، و دحض البالي و الرخيص، و ليس ألصق بمفهوم الثورة بهذا المعنى من الثورة السورية المجيدة، فهي برؤياها لا تقف عند حدود تغيير حاكم أو نظام فاسد فحسب بل تتعداها إلى شافية دفع الظلم بكل أشكاله السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية و النفسية.

لقد نقلت بوح القلب و ترانيم خاطر و حوّلتها إلى كلمات مداها دمّ الشهداء و حروفها أجسادهم الطاهرة وهدفتها ترجمة الذات السورية إلى واقع حضاري يفخر صنّاعه به و يصدحون بأصواتهم صرخة إنسانية ضدّ كلّ ما هو غير إنساني وكما قال بودلير الإنسان المنصف لا يكتفي بالتألم مما هو لا إنساني بل يعمل على إزالته أيضاً.

و أكبر جور تشهده سورية اليوم هو العدوان الثلاثي الإيراني - الأسد - الشيطاني (حسن نصر الله) و من ورائهم صراعات

أممية تسعى إلى نهش ما تستطيع من جسد الفريسة بعد أن ساندت القناص على اصطياها.

ولاشك أن الشعب السوري اليوم لا يقاتل عدوً واحداً وقف له بالمرصاد على جبهة واحدة بل يقاتل العالم أجمع وكلّ طرف من أطراف الحرب يراهن على النصر معولاً على أسلحته الخاصة، وقدرته على إحداث التغيرات الجيوبوليتيكية و الجيوسياسية، و لا شك أن حرباً ضروساً كهذه تجرّ الكثير من النزاعات و النعرات داخل سورية و خارجها لا سيّما أنها طالت و من المرجح أن تطول أكثر و أكثر.

وثمة حقيقة واحدة ثابتة هي أن ثورة الشعب السوري منتصرة إن عاجلاً أو آجلاً و أن نظام الأسد إلى زوال، إذ لم يعد يذكر اسمه على الخارطة السياسية إلا في عبارة واحدة فقط (سورية ما بعد الأسد) فما هو شكل سورية بعد الأسد؟ سؤال يؤرق الجميع و يحثهم على رسم مستقبل الحكم في سورية بعد الأسد بالدرجة الأولى و من ثمّ مستقبل سورية الحضاري الاجتماعي ككلّ.

صراع مريم تدور رحاه سرّاً و علانية بين وجهاء السياسة السورية المعارضة منها و المؤيدة، و قد تباينت الدعوات تباين الفكر الداع لها بدءاً من أنصار العلمانية و الداعين إلى إقامة دولة مواطنة مدنية مروراً بدعوات الداعين إلى تشكيل حكومة ائتلافية تضمّ أطراف المجتمع السوري بكافة خلفياته القومية و الدينية، و دعوات تنصيب فاروق الشرع التي تبنتها روسيا و أعلنت عن استعداد الأسد للتناحي و تسليم السلطة لنائبه السوري الشرع الذي مازال الشعب السوري يرفضه كونه من فلول نظام باند رغم انخفاض وتيرة ممثلي المجلس الوطني في رفضه و إعرابهم عن قبوله على استحياء، و من ثمّ محاولات المجلس الوطني تشكيل حكومة انتقالية مرضية لجميع أطراف المعارضة بما فيهم جماعة الإخوان المسلمين الذين يسعون إلى إحياء التجربة المصرية لكن مع إعطاء وعود و ضمانات للأقليات بعدم المساس بحقوق المواطنة و المشاركة في الحكم و لعلّ هناك فئة صامته تخطط إلى استنساخ الحالة الأردوغانية بإقامة دولة إسلامية على الطريقة المدنية الفضفاضة. و بين كلّ هذه الأصوات الداعية إلى أشكال متباينة من الحكم يبرز صوت المنادين بالخلافة الإسلامية القادمة و قد تضافت هذه الأصوات ليس على المستوى السوري فحسب بل ربما على مستوى العالم الإسلامي.

ولعلّ الفئة الداعية إلى إحياء عهد الخلافة هي أكثر الفئات رفضاً للتدخل الأجنبي في سورية لإنهاء حالة الحرب و إسقاط النظام الأسدي و يرون في ذلك ضرباً من الشرك و يندرون بالاحتلال الغربي الذي يتنظر فرصة انهيار النظام الأسدي لاستغلال حالة الفراغ الدستوري و فرض هيمنته و وصايته و حكامه المختارين وفق أجنذاته الخاصة و يخشون من سايكس بيكو جديدة في سورية و لذا فهم يصرون على تحقيق النصر بجهودهم في الوقت الذي يدينون فيه تقاعس الدول الإسلامية عن نصره الشعب السوري و مدّ يد العون له في حربه المقدسة و تتردد بين الحين و الآخر دعوات للجهاد الإسلامي مما حدا ببعض الأشقاء العرب إلى دخول سورية بدافع الجهاد والدفاع عن الأعراض و الأنفس مما فسح المجال أمام نظام الأسد بالتبجح والادعاء أن عناصر القاعدة بدأت تتسلل إلى سورية لتنفيذ عمليات إرهابية استشهادية تستهدف أمن الدولة و كانت دعواه ذريعة له ليضرب بيد من حديد و يمعن بقمع الثورة و دمار البشر والحجر و قد منحه العالم المتآمر غطاءً دولياً سياسياً و أطلق يده ليستمر في مسلسل إنهاك الثورة و الشعب واستنزاف مقدرات سورية وخيراتها و ضرب بنيتها التحتية، و أيّ هدية يقدمها المجتمع الدولي لإسرائيل أعظم من تدمير سورية و استنزاف جيشها الوطني و شعبها الثائر العظيم؟

و السؤال: ما هي ملامح دولة الخلافة الإسلامية القادمة و ما هي سمات الخليفة المنتظر؟

و هل ستضمّ هذه الخلافة كافة الدول الإسلامية في العالم و ينطوي تحت لوائها ملايين المسلمين في الشرق و الغرب؟ وكيف سينظر العالم الغربي للإسلامي إلى هذه الخلافة و هو يشعر بالخطر المحقق من قيامها و يحاربها بشتى الوسائل، سواء على مستوى القيادات و الحكام أو على مستوى الشعوب الذين أصابهم فيروس الإسلاموفوبيا بسبب سوء ما يبته الإعلام الغربي عن المفاهيم الإسلامية و بسبب قصور العالم الإسلامي عن تقديم الصورة الحقيقية للإسلام و إنصافه من

فمشكلة العالم الإسلامي كانت وما تزال تنبع من ضعف الإعلام وندرة العاملين في مجال الدعوة و افتقارهم إن وجدوا إلى الثقافة الغربية وإلى اللغات الأجنبية التي هي وسيلتنا للخطاب العالمي و لإيصال الدعوة لغير الناطقين باللغة العربية. وقد كثر الحديث عن عهد الخلافة القادمة في الخطاب العالمي و تناولها البعض بالتهكم مثل بريجنسكي الذي قال أن الإسلاميين لا يعنيه وحتى إشعار آخر قد يكون بعيداً جداً، أو مأسوياً جداً، سوى السلطة. إنها جاذبية الخلافة التي يفترض ألا يكون لها مكان في العصر، ولكن من يقول أن الإسلاميين يؤمنون بمثالية القيم الراهنة، بما فيها القيم التكنولوجية، حتى أن الكثير من الأبحاث تتحدث عن "اللعنة التكنولوجية".

و تساءل البعض هل سيشهد العصر الراهن خروج فتوى بتحريم الكهرباء على اعتبارها بدعة عصرية؟ و ما إلى هناك من سخافات لا تمت إلى جوهر القضية بصلة.

و عموماً يرى الكثيرون أن فكرة الخلافة هي فكرة مبعثرة في رؤوس الداعين إليها المتبئنين لأفكار حزب التحرير وهم متفرقون في أنحاء المعمورة ولا يملكون أية كتلة صلبة مستقرة في موقع راسخ ما قد تمكّنهم من طرح رؤيتهم طرح جدي لذلك تبقى أفكارهم أشبه بالطوباوية منها للواقعية، لذا فإن الدخول في عمق هذه الفكرة يستوجب الانخراط في علاقة مستقبلية مع الدول الإسلامية ومحاولة استقطابها لجاذبية الخلافة مما قد يشكّل ضرراً على العلاقات الدبلوماسية بين هذه البلدان وترفع الكثيرون منها عن قبول الفكرة لاسيما أنها تغلي نفوذ الحكام و تربطهم بحكم مركزي تابع من الخليفة المنتخب و هذا من شأنه أن يعطي أعداء الفكرة مبرراً للهجوم عليها ومحاولة الوقوف في وجهها لمنع تبلورها وتطورها مع إنها عامل مهم لتشكيل كتلة إسلامية ذات نفوذ و سيادة و استقلالية.

لذا تبقى الفكرة إجمالاً غارقة بالغموض و مغرقة بالأحلام إذا ما أسقطت على واقع العصر الراهن و تشابك العلاقات السياسية و تقاطع أو تنافر المصالح الاستراتيجية للبلدان الإسلامية المعنية.

و لا يمنع ذلك من قيام تحالف إسلامي سنّي بطريقة تنسجم مع روح العصر. لعلّ تركيا تبرز هنا كأحد أهم محاور التحالف السنّي المنشود إن لم تكن محوراً الأول و عمودها الفقري، و قد تشدّق الكثيرون بالتخويف من احتلال عثماني جديد قادم و حذّروا من إحياء الإمبراطورية العثمانية بعد أن أصبحت رميماً و قالوا أن الإمبراطوريات كالبشر إذا ماتت لا شيء يحي عظامها وهي رميم إلا قدرة الخلاق.

لكن كلّ المؤشرات تدلّ أن ثمة تصاعد واضح يبشّر بقيام حلف إسلامي سنّي نواته تركيا و سورية و العراق السنّي و لبنان السنّي و قد تحدث الكاتب مجاهد مأمون ديرانية عن بذور هذا التحالف و رأى كلّ الحكمة في تحفّظ أردوغان عن الردّ على قذائف القوات الأسدية وانتهاكاتها للحدود التركية مراراً، و لاسيما بعد زيارة الرئيس المصري مرسي إلى تركيا و تكاتف حزب العدالة و التنمية مع جماعة الإخوان المسلمين في مصر متمثلة بمرسي، في محاولة لجرّها إلى حرب إقليمية قد أنذر بوقوعها أو بامامها وغيره وتحدث عنها صالح القلاب في مقالة مطولة محذّراً من تبعاتها على المنطقة.

و الصمت التركي لم يكن ضعفاً ولا خوفاً و إنما حكمة لها رؤية بعيدة المدى، على خلاف الرؤية الشعبية التي تدين أردوغان وتتناول صمته بالسخرية و الشائم كونها تركّز التفكير فقط على واقع اليوم و تفاقم الأزمة في سورية و استنزاف الشعب في القتل والدمار والحصار حتى أصبحوا يطالبون بتدخل المريح و عطاردين لإنقاذهم من رحى الحرب الدائرة.

وبات من الواضح أن أمريكا لها إرادة في مدّ عمر الثورة و الحرب الدائرة بدليل امتناعها عن تزويد الجيش الحرّ بأسلحة نوعية ومضادات طيران و رفضها لإقامة حظر جوي من شأنه أن يقلب موازين المعركة و يحسمها لصالح الثورة الشعبية والجيش الحرّ وهذا ما لا تريده أمريكا في الوقت الراهن.

إذ أن استمرار الحرب يحقق مصالح استراتيجية لجميع أطراف الصراع الحالي، فالدب الروسي الذي استنكر استنثار أمريكا و قوات الناتو بنصيب الأسد في ليبيا، وإخراجه من المولد بلا حَمَص، وجد فرصته في التعنت في موقفه الداعم للأسد ليحصد نصيب الأسد ويثبت أن روسيا قوة، على العالم أن لا يستهين بها، فمنحته أمريكا هذه الفرصة ليشبع نهمه في الاستغلال و النفوذ و قد جنت روسيا إلى الآن أرباحاً طائلة من مجرد بيعها الأسلحة الفاسدة القديمة وخرَدتها الحربية إلى النظام الأسدي، ناهيك عن العقود و الاتفاقات الاقتصادية السرية و العلنية و عن عمليات تبييض الأموال و إيداع و دائع مالية ضخمة في البنوك الروسية و إقامة مشاريع و استثمارات مشتركة بين قادة النظام الأسدي و الزعامات الروسية المتكالبية. كل ذلك أدى إلى اضطراب دراماتيكي في المشهد.

تدهور مبرمج في العلاقات بين الدول، و بين الطوائف، و بين المذاهب، و إذا كانت إدارة الرئيس رونالد ريغان قد أطلقت نظرية «حرائق الغابات» لتسويق الاستراتيجية الخاصة بافتعال حروب تحت السيطرة و لأغراض محددة، فإن النظرية الشائعة الآن هي حرائق الشعوب.

يرى هنري كينغستون، الخبير الأمريكي، أن الحرب الباردة في الشرق الأوسط تتجه نحو الذروة. فذاك الغرام الروسي بنظام الرئيس بشار الأسد لا يمكن أن يكون، على المستوى الاستراتيجي، من قبيل العشق العذري. فقيادة موسكو يشعرون بأن الدرع الصاروخية الأمريكية وضعت في غرف نومهم.

شيء ما يشبه الاحتلال الاستراتيجي لروسيا التي لا يمكن أن تتصور خسارة صواريخها العابرة للقارات مفعولها السياسي والاستراتيجي، ليضيف أن سوريا مكان مثالي لإقامة منشآت تفضي إلى موت الدرع الصاروخية في تركيا.

و تأتي مصلحة أمريكا في استمرار الحرب في سورية أيضاً في استنزاف إيران و قواتها العسكرية و الاقتصادية في دعمها للأسد و في ذلك خير لأمريكا من توجيه ضربة مباشرة لإيران تستنزف قواتها و اقتصادها كما استنزفتها في حربها في العراق.

و كل المؤشرات تدلّ إلى تراجع العملة الإيرانية بشكل ملحوظ و إلى بدء انهيار اقتصادها و قواتها العسكرية و هذا بحدّ ذاتها ما تريده أمريكا. و على قمة الهرم تقف إسرائيل متفرجة سعيدة فليس هناك خدمة أكبر يقدمها لها المجتمع الدولي من تدمير سورية و إنهاكها لخمسين سنة قادمة.

لذا كان من الحكمة ترَفَع أردوغان عن الانجرار إلى حرب إقليمية و التريث في الردّ لتحقيق الهدف المنشود في إنشاء تحالف سني، و لن تخسر سورية في انضمامها تحت اللواء التركي أكثر مما خسرت في عهد الطغمة الأسدية الباغية و لن تخسر أكثر مما ستخسر لو عادت لعهد الانتداب الغربي للإسلامي و من الحكمة أن لا ننظر إلى التحالف التركي السوري القادم بعين الخوف و الرفض و وصفه بالاحتلال أو العدوان، فليس في الإسلام ما يدعو إلى رفض التحالف مع الشعوب الإسلامية و القومية الوحيدة التي يؤمن بها الإسلام هي القومية الإسلامية. أفكار كثيرة و تصورات متباينة عن سورية ما بعد الأسد و يبقى الحكم الفصل في ذلك لصناديق الاقتراع، و ستبقى سورية موضع اهتمام أمريكا كغيرها من دول النفط. ربّما يكون زبغينو بريجنسكي الأكثر دقة، و الأكثر واقعية، حين قال "ما دام النفط هناك فستبقى أمريكا هناك، ولو استدعت المسألة حرباً نووية.

من يعترض فيما أن يلقي في قاع الماء أو في قاع الأرض، فمن يعبأ به...

صدّق المفكر نعوم تشومسكي حين تساءل لماذا تصرّ أمريكا أن تلعب دور يهوذا في الشرق الأوسط؟

و لماذا تريد صلب الربيع العربي بعد أن دقّت مساميرها في رقبتة؟

و يفضي إلى خلاصة هامة هي أن الربيع العربي و إن صُلب، فإنّ ثمة هزة قد حدثت في الشرق الأوسط، تنذر بزلزال قادم و لن يقف يهوذا في وجه الزلزال.

